حول مراقبة الثقافة العامة بوزارة المعارف

إلى الدكتور طه حسين بك

كلمة صريحة

للدكتور زكي مبارك

أيها الأستاذ الجليل :

أقدم إليك أصدق التحيات ، ثم أذكر أن الصحف أخبرتني وأنا ماض إلى الأسكندرية لبعض الواجبات أن معالي وزير المعارف أصدر أمراً بندبك مراقباً للثقافة العامة ، فخفق قلبي خفقة الفرح لأمرين : الأول هو الاطمئنان إلى أن للحق دولة في هذه البلاد ، فقد كان قيل إنك انسحبت من عمادة كلية الآداب فراراً من المناوشات التي تعترضك من حين إلى حين . وكان قيل إنك طلبت إجازة طويلة تقضيها في جوٍّ هادئ ، وإن معالي النقراشي باشا لم يسمح بذلك ، وقد ظهر أنه كان يدخرك لهذا المنصب الرفيع ، فكان معنى هذا التلطف أن كفاحك في ميدان الحياة الأدبية يجعلك دائماً موضع الحظوة عند كبار الرجال .

ومن المؤكد أن في الناس من يعترض على اختيارك لهذا المنصب ، لأسباب لا تخفى عليك ، ولكني مغتبط بما صرت إليه ، لأنه شهادة بأن الكفاح له في مصر جزاء ، وأنت برغم حسادك من أقطاب المكافحين .

أما الأمر الثاني فهو الاطمئنان إلى أنك أصبحت معنا في وزارة المعارف ، وقد كان بيننا وبينك حجاب كثيف هو أشجار حديقة الرمان بالجيزة الفيحاء ، فلن تملك بعد اليوم أن تُبرِم وتَنقُض بلا رقيب ولا حسيب كما كنت تصنع في « القصر المسحور » : قصر كلية الآداب !

أصبحت معنا في وزارة المعارف ، وصار من السهل أن نتعقبك حين نشاء بدون أن نتجشم عُبور النيل فوق جسر فؤاد أو جسر إسماعيل أو جسر عباس .

فماذا أعددت لصحبتنا بوزارة المعارف ، أيها المراقب الحصيف ؟ أتكون جئت وفي يمينك كتابك « مستقبل الثقافة في مصر » ؟

إن كان ذلك فاعلم ، أيها الأستاذ الجليل ، أن هذا الكتاب لا يصلح أساساً لعملك الجديد ، فقد ناشه الناقدون من كل جانب ولم يتركوا فيه أديماً صحيحاً !

وأنت قرأت مقالي في نقد كتابك ، وقرأت مقال الدكتور عبد السلام الكردافي بك ، فهل قرأت مقالات الأستاذ سامي الحصري بك ، وقد نبهتك إليها منذ أكثر من شهرين ؟

أنت صرحت مرات كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية ، وأن تلك العقلية تجب مراعاتها في التعليم والتثقيف ، أفتظن أن هذا الأساس لا يزال صالحاً لأن تقيم عليه عملك الجديد ؟

وأنت دعوت إلى تعلم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل للحضارة الأوربية ، فهل تظن أن تلك الدعوة لا يزال لها في مصر والشرق مكان ؟

أيها الأستاذ الجليل :

إنك لا تفرق بين ما يقال في حُجرات كلية الآداب لتثقيف عدد محدود من الطلاب ، وما يقال في وزارة المعارف لتثقيف السواد الأعظم الذي تدخره الأمة للنهوض بأعباء العصر الحديث .

وإليك بعض التفاصيل :

أنت سميت سميك لسيطرة الجامعة على السنة التوجيهية ، فهل تعرف كيف كانت العواقب ؟

أردت بعقليتك (الجامعية) أن تفرض على الطلبة دراسة كتاب « نقد النثر » لقُدامة بن جعفر ، فهل تظن أن نصوص ذلك الكتاب مما تسيغه عقول الطلبة في السنة الخامسة الثانوية ؟

كان يجب أن تشتغل بالتدريس في القسم الثانوي سنة أو سنتين قبل أن ترشح نفسك لوضع منهج الأدب بالمدارس الثانوية .

كان يجب أن تذكر مصير كتاب « الجمل » عليه رحمة الله ! وهو الكتاب الذي انتظم تاريخ الأدب من عصر امرئ القيس إلى عصر شوقي ، ومع ذلك كان من الحتم على طلبة السنة الثالثة أن يدرسوه في عام واحد !

ولكن لا بأس ، فقد أعانني الله على وأد ذلك الكتاب ومؤلفوه أحياء ينظرون !

وأنت سميت سميك إلى أن يكون منهج الأدب في السنة الخامسة خلاصةً لتاريخ الآداب اليونانية واللاتينية ، وأتعبت

نفسك فى تأليف مذكرات يستعين بها المدرسون على فهم ذلك المنهج الطريف !

فهل تستطيع أن تدلنى على أمة واحدة كان فيها منهج الأدب القومى خلاسة لآداب أمة أجنبية ؟

وهل جشمت نفسك مشقة الانتقال لحضور الامتحانات الشفوية بوزارة المعارف عساك تدرك إلى أى حد نجح اقتراحك الجديد ؟

إن وزارة المعارف سكتت عنك، لأنها كانت تعرف ما (ترجوه) منك ، فقد قلت فى كتابك : إن أكثر الراقبين لم يثقفوا ثقافة جامعية . وأنت فى الواقع خصم مخيف ، فليس من المستغرب أن يسكت عنك الراقبون وهم كارهون !

فهل تنتظر أن يطول هذا السكوت ؟

هذا يوم له ما بعده ، يا سيدى الدكتور ، فقد تحدثك النفس بعد أسبوع أو أسبوعين بدعوة وزارة المعارف إلى فرض إحدى اللغات الميتة على بعض الأقسام بالمدارس الثانوية ، وقد تحدثك النفس بوجوب القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية لا عربية ، وقد تحدثك النفس بأن الجهل بحياة البحترى لا يقاس إلى الجهل بحياة هوميروس !

هل تذكر خرافة « تيسير النحو » التى شغلت بها وزارة المعارف ؟

وهل تذكر أين صارت تلك الخرافة بين غيابات التاريخ ؟

وهل تذكر ما قوبلت به من السخرية فى الشام والعراق ؟

إن محاسنك هى عيوبك ، يا سيدى الدكتور ، فأنت تفر من السكون لأنه ينافى الحياة ، وأنت بالفعل من أقوى الأحياء ، ولكنك مع ذلك لا تحب الحياة فى الحقيقة كما تحبها فى الخيال ، وإلا فكيف جاز عندك أن تدرس الخطب القديمة فى وطن ديموستين قبل أن تدرس الخطب الحديثة فى وطن زغلول ؟ وكيف صح فى ذهنك أن تدرس مجادلات الأحزاب فى أثينا قبل أن تدرس مساولات الأحزاب فى القاهرة وبغداد ؟

أنا أرجو — وأنت من أعرف فى رحابة الصدر ورجاحة العقل — أن تثق بأنى لا أجامل وطنى ولا أصانع زمانى ، وإنما أنا معلم يدرك أصول التعليم إلى أبعد الحدود ، وهى مهنة سأصل بها إن شاء الله إلى ذروة المجد ، فلا يعيبنى أن أستطيل بها على من أشاء ؛ ومعرفتى بهذه المهنة تفرض علىّ أن أصارحك بأنك قد تسلك مسالك لا تخلو من وعورة والتواء

أنت تلوذ بالقديم فى كل وقت لتأمن سيطرة الناقدين ، ولكن القديم قد اندحر أمام الجديد ، فمن واجبك أن تفكر فيما تقدم عليه قبل أن يذكرك ناقدوك

فأين أنت من مشكلات العصر الحديث ؟

هل ترى أن يظل شبابنا على جهل بالتطورات التى تثور فى الممالك الآسيوية والأوربية والأمريكية ، اكتفاء بما تقترح أن نعلمهم من أخبار اليونان والرومان ؟

وهل تظن أن العلم بمناوشات الأحزاب فى أثينا القديمة يغنى عن العلم باصطخاب المذاهب فى لندن وباريس وموسكو وبرلين لهذا العهد ؟

وهل ترى أن درس مخاطرات هانيبال أنفع من درس دسائس ستالين ؟

وهل تظن أن النظر فى أسباب سقوط الأمبراطورية الرومانية أهم من النظر فى أسباب سقوط الخلافة الإسلامية ؟

وهل يخطر فى بالك أن درس تاريخ الآشوريين والبابليين أهم من درس العراق الحديث ؟

وهل تفهم أن درس الصلات بين مصر والشرق لعهد الفراعين أهم من درس الصلات بين مصر والشرق لهذا العهد ؟

التاريخ واجب الدرس ، ولكنه على كل حال تاريخ ، فكيف يغيب عنك أن من العيب ألا نعرف من مذاهب روسيا وألمانيا وإيطاليا غير ما تسوقه إلينا بعض الجرائد الأجنبية ؟

وهل تثق بأن تلاميذ المدارس عندنا يعرفون الفروق بين الاشتراكية والشيوعية ، مع أننا نعلمهم الفروق بين مذهب أهل السنة ومذهب الاعتزال ؟

هل يعرف تلاميذنا ما النازية وما البلشفية وما الفاشيستية ؟

وهل يعرفون أصول العقائد التى تحترب فى الشرق لهذا العهد ؟

وهل فى مصر كتاب واحد يؤرخ الثورة المصرية التى شبت فى سنة ١٩١٩ ؟

وهل فى مدارسنا تلميذ واحد علمه أساتذته كيف يقرأ أخبار الأسواق المالية فى الجرائد ؟

وهل تعرف مدرساً شرح لتلاميذه كيفية الاستفادة من الإذاعة اللاسلكية ؟

وهل عندك فى كلية الآداب مدرس يستطيع أن يُلقى محاضرة وافية عن الأفلام المصرية ؟

وهل تعرف أنت كُنه الاتجاهات الأدبية فى البلاد العربية لهذا العهد ، كما تعرف كُنه الاتجاهات الأدبية فى عصر بنى أمية وعصر بنى العباس ؟

وهل عندك فى مكتبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب مجموعة من الجرائد والمجلات تصور عقول الكتاب والباحثين فى مختلف الأقطار العربية تشبه مجموعة الكتب القديمة التى اشتركتُ معك فى تكوينها سنة ١٩٢٥ ؟

وهل يعرف طلبة الفلسفة عندكم عدد المذاهب الصوفية بهذه البلاد ؟

وهل فكرتم فى تصحيح الأغلاط التى وقعت فيها بعثة بونابرت ؟

وهل أقمتم متحفاً لمخطوطات العلماء والشعراء والكتاب الذين حفروا الأساس لبناء العصر الحديث ؟

وهل عندكم نبأ مما صنع النجارى فى ترتيب « لسان العرب » ؟

وهل فكرت كلية الآداب فى البحث عن كتاب تيمور باشا فى اللهجات العامية ؟

يا سيدى الدكتور

اسمع كلمة الحق من رجل كان تلميذك ، وكان زميلك ، ولا يزال أصدق أصدقائك ، وهو يصارحك بأنك تجهل بلدك وعصرك بعض الجهل

لقد جاورتنا مدة فى مصر الجديدة ، فهل تعرف عدد المدارس فى مصر الجديدة ؟

فى مصر الجديدة أربع وثلاثون مدرسة لا تعرف منها وزارة المعارف غير آحاد !

أنت جئت إلينا فى وزارة المعارف ، ولم يعُد بيننا وبينك حجاب من أشجار الأورمان ، فأعدّ عزيمتك لحرب ضروس تنقلك من حال إلى أحوال

أقول هذا وأنا أعرفُ الناس بفضلك وشهامتك ، فإن استرحتَ لبعض ما قدمتُ إليك فذلك بعض ما عهدتُ فيك ، وإن ضاق صدرك من بعض ما أسمعتُك فلك عذرٌ مقبول : فأنت من أهل هذا العصر ، وهم يتنكرون لكلمة الحق فى بعض الأحيان .

لا تنزعج ، يا سيدى الدكتور ، فليس هذا المقال إلا صدًى لهدير البحر بالاسكندرية ، ولن ألقاك فى وزارة المعارف إلا بلسان ممسول يشبه ألسنة الفنيين بوزارة المعارف !

زكى مبارك

(الرسالة) يظهر أن الدكتور المبارك فهم من (الثقافة العامة) للمرحلة الثانوية من السنة الأولى إلى الرابعة . والذى نعرفه أن (مراقبة الثقافة العامة) لا يتصل عملها بالمدارس والمناهج وإنما يتصل بشؤون الثقافة الشعبية فيما وراء ذلك

الإفصاح فى فقه اللغة

معجم عربى : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب .

ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة

ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدى